قطيعة الجفاف: مزارعو شمال بحيرة الزيتون يتعلمون كيف يعيشون بلا مطر

بقلم: نادية الشريف

في صباح بارد من شهر يناير، وقف أحمد الطيب على ضفة بحيرة الزيتون وهو يحدق في الأرض التي كانت ذات يوم تحت الماء. كان يرتدي معطفا ثقيلا ويمسك بيده عصا خشبية، وقال وهو يشير إلى الشاطئ البعيد: «هناك كان عمقي يصل إلى ثلاثة أمتار، واليوم أستطيع أن أمشي فوق المكان نفسه دون أن أبتل». وأحمد الطيب ليس استثناء، بل هو واحد من آلاف المزارعين الذين وجدوا أنفسهم في قلب واحدة من أكثر الأزمات المائية قسوة في تاريخ المنطقة.

وبحيرة الزيتون، التي كانت تغطي في أوج امتلائها أكثر من 1200 كيلومتر مربع، تقلصت مساحتها بنحو الثلثين خلال السنوات الخمس الماضية. وتشير أرقام الهيئة الإقليمية للموارد المائية في وادي الحجل إلى أن منسوب المياه انخفض بأكثر من 14 مترا منذ عام 2016، وهو العام الذي سجل آخر فيضان كبير للوادي. وفي المقابل، ارتفع عدد السكان في المناطق المحيطة بالبحيرة بنحو 230 ألف نسمة، أي ما يقارب ربع سكان الإقليم بأكمله، وهو ما زاد الضغط على ما تبقى من المياه الجوفية والسطحية.

وقال الدكتور سليم القرنفلي، مدير مركز دراسات الأحواج الجافة في جامعة وادي الحجل، إن المشكلة لم تكن مفاجئة لمن يتابع الأرقام عن كثب. وأضاف: «كنا نعرف منذ عقد أن الاستهلاك يسير أسرع من التجدد، لكن السياسات استمرت كما لو أن الخزان لا ينضب». وأوضح أن الحل لا يكمن في حفر آبار جديدة، بل في إعادة التفكير في طريقة توزيع المياه وفي نوع المحاصيل التي تزرع على ضفافها.

وفي قرية الزيتون الشرقية، التي تبعد نحو 12 كيلومترا عن الشاطئ الحالي، بدأت بعض العائلات بالفعل في تغيير نمط حياتها. فقد تحولت مزرعة عائلة الطيب من زراعة الموز والخضار إلى تربية النحل وزراعة أشجار اللوز والزيتون التي تتحمل الجفاف. وقال أحمد الطيب: «خسرت في السنة الأولى ما يقارب نصف دخلي، لأن النحل يحتاج إلى وقت حتى يبدأ الإنتاج، لكنني اليوم أبيع عسلا أفضل من أي وقت مضى، وأشعر أنني أسيطر على مصيري من جديد».

غير أن هذا التحول لم يكن سهلا على الجميع. فقد اضطر عشرات المزارعين إلى بيع أراضيهم بأسعار منخفضة لأن آبارهم جفت قبل أن تجف أراضيهم، وانتقل بعضهم إلى المدن بحثا عن عمل. وتقول الباحثة في علم الاجتماع ريم الدباغ، التي أعدت دراسة ميدانية شملت 340 أسرة، إن «الخسارة ليست مالية فقط، بل هي خسارة لذاكرة المكان وللطريقة التي عاش بها الناس مع الماء لأجيال».

وتحاول السلطات المحلية الآن وضع خطة شاملة لإدارة ما تبقى من البحيرة، تشمل تحديد حصص سنوية لكل مزرعة وفرض رسوم على الاستهلاك المفرط. وقال والي وادي الحجل، السيد منير الفاسي، في مؤتمر صحفي عقد في 3 مارس الماضي: «لن نستطيع إعادة البحيرة إلى ما كانت عليه، لكننا نستطيع أن نمنع أن تختفي تماما». وأعلن عن تخصيص 2.8 مليون دينار لمشاريع تحلية المياه وإعادة تدوير مياه الصرف.

حديث الناس عن الأسبوع

تحدث الناس هذا الأسبوع عن أمور كثيرة، لكن قليلا منها كان يستحق الحديث فعلا. وفي مقدمة ما شغل الناس خبر إغلاق الجسر القديم عند مدخل بلدة الرمانة، بعد أن ظهرت فيه تشققات واسعة خلال الأسابيع الماضية. وقد أثار القرار غضبا واسعا بين سكان القرى الواقعة على الضفة الشرقية للوادي، لأن الجسر كان الطريق الوحيد تقريبا الذي يربطهم بالسوق الأسبوعي ومركز الدائرة. وقال كثيرون إنهم كانوا يعرفون منذ سنوات أن الجسر يحتاج إلى صيانة، وإن الإغلاق المفاجئ كان يمكن تجنبه لو أن الإصلاحات بدأت في وقت أبكر.

وفي المقابل، رأى آخرون أن الإغلاق كان ضروريا، وأن السلامة لا تقبل المساومة، حتى لو تسبب في بعض الإزعاج. وبين هذا وذاك، ظهرت حلول مؤقتة سريعة، إذ نظم أهالي قرية عين الصفصاف خدمة نقل بالقوارب الصغيرة عبر النهر، وتطوع شبان من بلدة الرمانة لحمل كبار السن والنساء والأطفال على الدراجات النارية. وقد تحولت هذه المبادرات البسيطة إلى مادة للحديث أكثر من الخبر نفسه، لأنها أظهرت أن الناس، حين يضيق بهم الطريق، يجدون طريقة للمرور.

وتحدث الناس أيضا عن ارتفاع أسعار الخضار في سوق الثلاثاء، بعد أن تضررت مزارع الطماطم والبقوليات في منطقة وادي الحجل من الفيضان الذي غمر أكثر من 1200 دونم في أواخر فبراير. وقال بائعون إن الكيلو الواحد من الطماطم قفز خلال أسبوع واحد من 0.3 دينار إلى 1.2 دينار، وإن كثيرا من الأسر اضطرت إلى تقليص مشترياتها. وفي المقابل، أكد مزارعون أن الخسائر الحقيقية لم تكن في السعر، بل في البيوت والمواشي التي جرفتها المياه، وأن الأسعار ستعود إلى طبيعتها بمجرد أن تجف الأرض وتعود الشاحنات إلى الطريق.

وفي الجانب الرياضي، احتفل الناس بفوز فريق نجوم الوادي لكرة القدم على فريق الشباب الأزرق بهدفين مقابل هدف واحد في المباراة التي جمعتهما على ملعب البلدية في 14 فبراير. وقد حضر المباراة نحو 3000 متفرج، وهو رقم كبير بالنسبة إلى ملعب لا تتجاوز سعته الرسمية 2500 مقعد، وامتلأت المدرجات قبل صافرة البداية بساعتين. وسجل الهدف الأول في الدقيقة 37 من ركلة جزاء احتسبت بعد لمسة يد داخل المنطقة، وأثارت غضب لاعبي الشباب الذين رأوا أن الحكم كان بعيدا عن الكرة. وقال مدرب الفريق الفائز، كمال الزعتري، في تصريح للصحفيين: «لعبنا بقلوبنا، والجمهور كان معنا من أول دقيقة إلى آخر دقيقة».

وفي الدقيقة 58 سجل لاعب الوسط يوسف العلمي هدف الفوز بتسديدة قوية من خارج المنطقة، بعد تمريرة عرضية من الجناح الأيسر. وقد أشاد المدرب بأداء الخط الخلفي الذي قاده القائد مازن الطويل، الذي لعب المباراة رغم إصابة في الكاحل تعرض لها في التدريب يوم الثلاثاء. وقال الطويل بعد المباراة: «كنت أعرف أن الفريق يحتاجني، فلم أكن أريد أن أفوت هذه الليلة مهما كلفني الأمر». وقد غادر الملعب على نقالة وخضع لفحوص طبية في مستشفى الرمانة العام.

وفي الجانب الآخر، عبر مدرب الشباب الأزرق عن خيبة أمله من أداء لاعبيه في الشوط الثاني، حيث سيطر الفريق الفائز على وسط الملعب وقطع معظم الكرات الهجومية. وقال المدرب: «كنا نملك الفرص لكننا لم نستغلها، وهذا ما يدفع ثمنه في النهاية». وقد سجل الشباب الأزرق هدفه الوحيد في الدقيقة 81 عن طريق المهاجم رامي السباعي، الذي دخل بديلا قبل نهاية المباراة بعشر دقائق فقط.

وفي ترتيب الدوري، رفع الفوز نجوم الوادي إلى المركز الثالث برصيد 41 نقطة من 22 مباراة، بفارق نقطتين عن الوصيف وثلاث نقاط عن المتصدر. وقد أشاد رئيس النادي، السيد فراس الكيلاني، بالجماهير التي حضرت رغم البرد القارس، وأعلن عن تخصيص مكافأة مالية للاعبين الثلاثة الذين شاركوا في المباراة. وقال الكيلاني: «هذا الفريق يستحق كل الدعم، وسنعمل على تحسين ظروف التدريب قبل مباراة الدور المقبل».

مزارعو الضفة الشرقية يطالبون بتعويضات عن خسائر الفيضان

وفي سياق متصل، طالب مزارعو الضفة الشرقية للوادي بتعويضات عن الخسائر التي لحقت بمحاصيلهم خلال الفيضان الذي غمر أكثر من 1200 دونم في أواخر فبراير. وقال رئيس اتحاد المزارعين في وادي الحجل، السيد منير الفاسي، إن الخسائر المقدرة تتجاوز 2.8 مليون دينار، وإن كثيرا من الأسر فقدت مواشيها بالكامل. وأضاف أن الاتحاد رفع مذكرة إلى وزارة الزراعة تطالب بصرف تعويضات عاجلة قبل نهاية الشهر الجاري.

وفي المقابل، أكد مسؤولون في الهيئة الإقليمية للموارد المائية أن الفيضان كان نتيجة مباشرة لانهيار جزء من السد الترابي القديم عند مدخل الوادي، وأن الهيئة لا تتحمل المسؤولية القانونية عن الأضرار. وقال المتحدث باسم الهيئة، السيد رامي الخطيب، إن الهيئة «تتفهم معاناة المزارعين، لكنها لا تستطيع الدفع قبل انتهاء التحقيق الفني». وأشار إلى أن التحقيق قد يستغرق ثلاثة أشهر على الأقل